بها أن المحور الرئيسي الذي دارت حوله أحداث المنطقة من بعد الحرب العالمية الثانية هو « التواجد الصهيوني » فوق الارض الفلسطينية . هذا التواجد القهري الذي فرض بقوة الاجبار المسلح وبالخيانة السياسية المحلية ، جعل الهدف المباشر للقوى الوطنية هو التجهز والاستعداد بقدرات ردع عسكرية لمواجهته ، وبقيام ثورة يوليو ٥٢ تلاحقت الخطوات مسرعة نحو هذا الهدف بعد أن فشلت محاولات الامبريالية الامريكية في احتواء هذه الثورة ، بل كان من نتيجة هذه المحاولات أن جاء السلاح من المعسكر الاشتراكي ودخل المنطقة لاول مرة في التاريخ الحديث ، ثم تتابعت الاحداث وتطورت ، الى أن جاء العدوان الثلاثي ومن بعده الوحدة بين مصر وسوريا ثم الانفصال وبدء التحول نحو النظام غير الرأسمالي ، بصدور القوانين الاشتراكية .

وفي نفس الوقت ، كان سباق التسلح بين اسرائيل من جانب وبين مصر وبعض البلاد العربية من جانب آخر قد اتخذ وضعا يتجه نحو الصدام المسلح في السنين السابقة على ٦٧ . وقد سيطرت على نفوس المصريين بصفة خاصة مشاعر وطنية ساخنة جاءت تعبيرا عن الاقتناع العام بالتصريح الرسمي الذي جاء على لسان القيادة السياسية وقتها في مصر وهي « لدينا أكبر قوة عسكرية ضاربة في المنطقة » .

هذه الجملة التي تتألف من سبع كلمات فقط ، هي تعبير واضح عن الحالة المعنوية التي شملت مصر وقتها شعبا وحكومة وقيادة ، وهي ، هي ذاتها التي سيطرت على الفكر الكاريكاتيري ايضا . وكان من الطبيعي — ومن الحتمي أيضا — ان يؤدي هذا الاقتناع الشامل الى دفع الرسام المصري نحو التعبير عن عواطفه الوطنية بقدر من الثقة يتفق مع تصديقه واقتناعه بأننا حقا « أكبر قوة ... الخ » فاذا أضيف الى هذا ما يمارسه الصهاينة من أعمال الاضطهاد والقهر كل يوم ضد العرب — سواء من كان منهم داخل الارض المحتلة أو خارجها — نجد أن ردود الفعل لدى الرسامين العرب لا بد وأن تتخذ أشكال العنف ، وتكون النتيجة ان تخرج الرسوم الكاريكاتيرية المصرية حاملة أنواعا مختلفة من أشكال البطش والتنكيل ، كما سبق أن عرضنا .

وقد يكون هناك دافع آخر — ولو انه أقل شأنا — وهو أن هذا النوع من الرسم — العنيف — يبدو للناظر أكثر اغراء وجاذبية ، لانه حكم قاطع فاصل لا يحتمل التأويل ويجعله سهل التناول ، كما انه أسهل على الرسام تفكيرا وتنفيذا . وهذا يعني أن كمية الاجتهاد والمعاناة المبذولة في هذا العمل كمية ضئيلة، وهو ما سبق الاشارة اليه.

هذه الحالة من الثقة الزائدة عن الحد اعتمدت على القدرة العسكرية وحدها ، والتي قال الخبراء عن بعضها — الدبابات المصرية التي كانت على الحدود قبل حرب يونيه — انها قادرة اذا تحركت أن تصل حتى حدود ايران في فترة شهرين فقط دون أن تقف في وجهها أي قوة مضادة طالما تجد المساندة الجوية .

والخبراء العسكريون حين يتحدثون يركزون على فن القتال المسلح ليس الا ، الا أن هذه القوة لم تكن تكفي — وحدها — طالما كان العمل السياسي متغيبا . وقد يحتاج هذا الجانب الى كثير من البحث والتأمل ، وهو ما لا تتسع له هذه المناسبة ، ولكن يكفينا الاحاطة ببعض نواحيه حتى نحصل على صورة أكثر وضوحا للموقف . فالمقصود بالعمل السياسي ، العمل الجماهيري أصلا . ومن الثابت أن أغلب التفاعلات والصراعات التي دارت وقررت مصير الامور في مصر لم يكن للجماهير دور مؤثر وواضح في تخطيط مسارها ، ذلك لان عمليات التخطيط كانت تتم وقتها في أضيق الحدود ، ومن خلال المستويات الاعلى في القيادة ، لان الأنشطة القيادية المسؤولة تمارسها مجموعة محدودة العدد ، بحكم الضرورة ، للحفاظ على سرية التخطيط ،